Accession No 2003

الاهداء

اليكم يا من احيي فيكم فجراً جديداً ،
انتم الألى ستحبونني .
اليكم يارجال الايام المستقبلة ،
بل ايتها الجيوش المقدسة ! (١)

اهدي هذه الرسالة

المخلص .

عمر فاخوري

(١) الابيات للشاعر الروسي تيودور دو بانفيل

مقدمة

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل
رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

قاسم امين

الدواعي الى تأليف الرسالة

كان للامة العربية فيما مضى سلطان عظيم، وحضارة ومنعة لم تبق الايام على شيء منها، الا بعض آثار فخمة؛ واسفار مهمة ولا يذكرنا بها الا تاريخ مجيد، ليس من يعرفه فينا الا القليل: — شر خلف لخير سلف — فهو شاحب هزيل، يملوه الغبار، مع انه فياض بالمآثر الغراء والفخر العميم

ذل رزحوا تحته ستة قرون، وجهل اناخ عليهم بكلكله، وبلاد ترد ردها الاغيار لقمة سائغة: تونس والجزائر، مصر ومراكش، طرابلس والكويت، وغيرها على الابواب!

احزنني هذا المنظر، وآلمت قلبي هذه الفواجع وانا لم ازل اخطو الخطوة الاولى من هذه الحياة، فكدت ايأس من الشفاء

وصلاح الحال ، فاذا بي قد رجعت الى نفسي في هذه الفدة الاخيرة فقلت : ليس الشعب العربي جثة هامدة ، وليس ينتاب منا احياء العظام الرميمة ، وانما هي حركة ذرة ، ونبض ضعيف ، او بالاحرى مريض يوشك ان يدخل في طور النزاع والاحتضار ويتمكن انقاذه من براثن الموت وفتكاته ، اذا كانت الطرق فعالة والهمم عالية .

بدأ بعض البصيرين يفكر في الامر ، اسبابه ونتائجه ، وكيفية تلافي شره ، ويبث نظرياته في بني قومه ، غير ان هذا البعض قليل نادر .

لمحت في الافق الشاسع بصيص نور ، واعتقدت اني ادركت شطرًا من الحقيقة ان لم اكن حلبت اشطرها ، ووصلت الى قسم من جواب ذلك السؤال العظيم الذي يجول في ادمغة اولئك المفكرين وتتوقف عليه حياة امة بأسرها ، طيبة الارومة كريمة الاصل ، فعولت ان القي دلوي بين الدلاء ، رائدي الاخلاص وقول الحق .

آراء اقتبستها من كتب غربية لا ادعي عصمتها ، وافكار

خاصة جرتني اليها المقارنة والمقابلة بين تلك وبين ما شاهدته !
فالرسالة اذن جمع وتعريب اكثر منها وضع وتصنيف . اكتب لا واثقاً من الفوز واقبال الناس ، ولكني متأكد من ان الانسان يستطيع اذا ابدى احدى بنات فكره ، النفع ببعض قراء يطالعون ما كتبه بلذة وارتياح : ولا سعادة تعادل ما يشعر به من السعادة ، رجل وجد من يشاركه في معتقده.

ان الافكار بعيدة جداً عن ان تتعمم بسرعة زائدة ، بل هي بالعكس بطيئة السير ، وبمقدار بطئها تقاس درجة استحكامها في ادمغة البشر

اكتب كل ما اكتبه وانا متمثل بقول الشاعر :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي   فلا زال غضبانا علي لئامها

* * * * * *

الفكرة الرئيسة للرسالة

كيف ينهض العرب ؟ ؟ ؟

هذا سؤال ولا انكره يطرأ على بال كثيرين . وقد كنت ممن طرأ علي بالهم .

. اما الاجوبة فمنحصرة فيما يأتي : نوال اللامركزية الادارية – لاحتلوا ان البحث شو في الدرجة الاولى عن عرب الدولة العثمانية لانهم وحدهم المتفقون استقلالهم نوعاً ما – وتعميم العلم في طبقات الامة كافة . والاطمئنان الخارجي وهلم جراً . وكل يزعم ان الحق في جانبه ، بيد اني ارى انه ليست هذه الا سبلاً ضيقة ، بعضها طويل وبعضها قصير ، يجب ان تؤدي جميعها الى ما يلزم ان يكون غاية كمالية يشتد وراءها كتاب العرب المصلحون وكعبة اليها يحجون

فما هي هذه الغاية الكمالية ، او المقصد الاسمى ، او المثل الاعلى ، او (الايديال) المشترك كما يقول الفرنسيس *Idéal Commun* ؟ وهكذا انقلب السؤال الاول كيف ينهض العرب ؟ الى هذا الثاني : ماذا يجب ان تكون الغاية الكمالية المشتركة لفكري الامة ؟ يقيني انه اذا اجبنا عليه ادركنا الضالة التي ننشدها منذ عهد طويل .

فكرت طويلاً في هذا الشأن فلم ينر الظلمة المحيطة بي الا فقرة من كتاب للدكتور غوستاف لوبون نشره حديثاً ، اسمه : « الثورة الفرنسية وروح الثورات » لم اتمالك اذ تلوتها عن ان ارتمي على

هذا السفر الجليل اقبله مثنى وثلاث ، وان صرخت بعد ذلك الانتظار الطويل بمثل ما نادى به (ارخميدس) في العصور القديمة ، لما اهتدى صدفة الى احدى الحقائق العلمية :

— اريكا ! ... — اريكا ! ... (وجدتها . وجدتها)

وها انا ذا انقل اليكم تلك الفقرة بنصها الصريح :

« لم تكن قوة الثورة في المبادئ القديمة التي ارادت نشرها ، ولا في الاوضاع التي زعمت انها تؤسسها ، لان الشعوب قلما تهتم بالاراء والاوضاع . اذا كانت الثورة قوية جداً ، واذا جعلت فرانسا تنوء تحت اعباء فظائع ، وخراب ، ومذابح حرب داخلية شعواء ، واذا وقفت في وجه اوروبا بأسرها ظافرة ، فذلك لانها اسست ليس عهداً جديداً بل ديانة جديدة . والتاريخ يدلنا بانه لا يمكن مقاومة معتقد كهذا راسخ : ان (رومة) نفسها تلك التي لا تقهر ، اضطرت ان تولي البارحة امام جيوش الرعاة الرحل ، تنيرهم شريعة محمد (صلعم) ، وملوك اوروبا لم يقدروا لنفس السبب على مقاومة جنود (الكونفانسيون) ذوي الثياب البالية . إنهم كانوا مثل سائر المؤمنين مستعدين لتضحية ذواتهم في سبيل معتقداتهم » .

كذلك لا ينهض العرب الا اذا اصبحت العربية او المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم ، والمسيحيون الكاثوليك على انجيل المسيح الرحيم ، والبروتستانت على تعاليم «لوثر» الاصلاحية ، وثوريو فرنسا في عهد (الرعب) على مبادئ (روسو) الديموقراطية ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك !

هذه هي الفكرة الرئيسة للرسالة ، اسير منها باسم العرب دون نظر الى معتقدهم الديني ، داعياً اياهم الى اعتناق مذهب سياسي — وانما المستقبل للمذاهب السياسية — الا وهي المصرية العربية !

* * * * *

وسأذكر في هذه الرسالة اسباب عظمة العرب في القديم وسقوطهم ، وادرس ضرورة الغاية الكمالية او الخيالية للافراد والجماعات ، ثم اتناول البحث في الثورة الفكرية التي يجب احداثها في الامة لتكوين وحدة لها في المشاعر والآراء والمعتقدات ، وآتي الى تقرير القيام بالجنسية ، وبعد ذلك اتقدم

الى بيان الواجب المرتب على مفكري العرب عند سيرهم في هذا الطريق القويم ·

وليس قصدي من كل هذا الا النفع المحض الخالص من كل شائبة شائنة ' ارجو اذا اصبت كبد الحقيقة ' المساعدة ، او اذا اخطأت المرمى ' المناضلة بالبرهان · فانه لا يقرع الحجة الا الحجة · وليست القوة الاستبدادية ' الا مدعاةً لانتشار الافكار الجديدة ' التي ستكون يومًا من الايام ، سيلاً جارفاً يقضي على من يعترضه ' ويزعزع اسس الابنيــة القديمة ' او ناراً شديدة الضرم يبلغ لسانها عنان السماء ' تأكل اليابس البالي من المعتقدات ' متى استحكمت في الاذهان ، ورسخت في العقول :

هذي عواطف لا تقاومها يدٌ

ومجازفٌ من عارض التيَّارا

انا نروم ان نجعل العربية ايماناً دينيًا يضحي كل منافي سبيله مصالحه وسعادته ' حتى حياته ' يربط الامة بوحدة ادبيه ' تجعلهم كالبنيان المرصوص ' وتنمي قواهم المادية ' لان مبدأ كهذا

كن ذات طليعة حضارة مقبلة ، لا يغلبه الا مبدؤ اكثر منه رسوخاً واعرق تأصلاً .

اذ ذاك نجدد مجد اجدادنا الدارس ، ونحيي مفاخرهم الميتة او بالاحرى التي تكاد تموت ، ولا نعود نسمع من يقرعنا ويندد بنا قائلاً ، وان قوله لحق صراح :

اتقنع بالعظام وانت تدري

بأن الكلب يقنع بالعظام ؟

الفصل الاول

شذرة تاريخية

في اسباب نهضة العرب وسقوطهم

نأتي هنا على ذكر بعض الاسباب الخطيرة التي نهضت بالعرب في القرون الوسطى ، تلك النهضة المباركة ، ثم نتقدم الى سرد العوامل التي سببت تقاص سلطتهم ذلك التقلص السريع . وفائدة هذا في بحثنا تدرك للوهلة الاولى . فان التاريخ ولو كان لا يعيد حوادث الماضي حذو القزة بالقزة ، فانه لا يشك احد بأن الاسس الكبرى لجميع حوادثه تظهر مقادة بنواميس واحدة

* * * * * *

وضع العلامة الكبير الدكتور غوستاف لوبون مجلداً ضخماً في (حضارة العرب) *-Civilisation des arabes-* خصّ فصلاً من فصوله بتقرير اسباب نهضتهم وانحطاطهم ، ضمّنه احسن مارأيت من الآراء الاجتماعية بهذا الشأن . ولذا نلخص عنه اكثر مضامين هذه الشذرة

عوامل النهضة

> لا نستطيع ان نذكر في التاريخ شعباً وصل الى الدرجة التي ادركها العرب في تلك المدة الوجيزة . فقد اسسوا من الوجهة الدينية ديانة من اعظم الديانات السائدة على العالم ، وشيدوا من الوجهة السياسية صرح احدى الممالك الكبرى التي عرفها التاريخ ، ومدنوا اوروبا من الوجهة الاخلاقية والعقلية
>
> غوستاف لوبون

كان العامل الاول المؤهل لعظمة العرب ، الزمن الذي ظهروا فيه . ولهذا العامل قيمة كبرى للافراد والجماعات . فان كثيراً من المزايا لا تنبثق الا في وقت ما . فنابوليون لم يكن ليصل الى تلك الدرجة العالية من المجد العسكري لو وجد في عهد لويس الرابع عشر . ولو ظهر رجال العرب في زمن عظمة الرومانيين لظلوا يجهلهم التاريخ . جاء رجال العرب في الوقت الملائم ، اذ كان العالم القديم متداعياً للسقوط من جميع اطرافه يكفي ان يلمسه اتباع النبي لمساً خفيفاً ليصير خاوياً على عروشه غير انه لا يكفي هدم مملكة لتأسيس حضارة . فالعجز

الطويل الذي اظهره البرابرة وارثو الحضارة الرومانية في الغرب كما العرب في الشرق ، يدلنا على صعوبة هذا العمل ، او بالاحرى استحالته . فالشرط الاعدادي الاول كان هكذا ميسراً تكوين مملكة وحضارة جديدتين . بيد انه يلزم لنجاح ذلك عوامل اخرى اساسية نذكر من هذه بادئ ذي بدء تأثير العرق الجنسي .

ان الذي يميز على الاخص قوماً عن قوم هو عدد من المشاعر والقابليات المشتركة الموجودة في افراد هذا القوم ، يوجه قواهم نحو نقطة واحدة ، ومجموع هذه المشاعر المتماثلة الناشئة عن تجمعات وراثية بطيئة ، يمثل التراث الذي اشتغل كل من اجدادنا في ايجاده وتركه لخلفهم ، والذي نسمل نحن على تركه لابنائنا . ومع ان ذلك الخلق يتغير بحسب قابلية الشعوب ، فقلما يختلف في شعب واحد .

لاشك ان كل جيل يؤثر في العناصر الاساسية للخلق القومي ، ولكن هذا التأثير خفيف للغاية ، حتى انه يلزم مرور عصور عديدة ليتمكن مجموع التغيرات الخفيفة من احداث انقلاب محسوس . ويظهر ان التربية والبيئة والحوادث تنشئ بعض التغيرات السريعة . بلى ، ولكنها وقتية لا تعمر طويلاً .

وبالطبع فان الخصائص الاخلاقية والعقليـة في قوم من الاقوام ، ثابتة تقريباً ثبوت الخصائص الجسمية في الانواع . ومعلوم ان هذه لاتتغير الا بعد زمن طويل ، وبطوءها الشديد هذا قد حدا ببعض الطبيعيين الى اعتبارها ثابتة لاتتغير

ليس الذكاء بالمكون للخلق ، وليس هو بالمحرك الاساسي للسيرة ، بل الذي يكونه هو مجموع المشاعر المشتركة ، الذي ينبغي الابتداء به عند درس الدور الذي لعبته الافراد والشعوب على مسرح التاريخ . ان حب الثورات ، وسهولة اشهار الحرب بلا موجب ، واليأس حين الفشل ، صفات ادركها (قيصر) في العصور القديمة عند اجداد الفرنسيس . وهي تشرح كثيراً من حوادث ما ضيهم

من السهل البرهان بواسطة التاريخ على ان نتائج الخلق تتغير بحسب الظروف ، وان الخلال او النقائص التي سببت في عهد ما عظمة شعب من الشعوب يمكن ان تسبب سقوط غيره . والعرب يقدمون لنا مثالاً على ذلك .

يمكننا بالبحث الدقيق ان نكشف مع اختلاف النتائج اسباباً واحدة . يظهر مثلاً وجود هاوية سحيقة بين يوناني عصر

(بريكاس) وبين البيزانتي . غير ان روح الخلق لم تزل واحدة . اما الظروف التي يعمل بها فهي وحدها تغيرت . فانه حين ظهوره في بيئة وزمن مختلفين عن ذي قبل ، صارت تلك الرقة في الكتابة ، وذلك المعنى الفلسفي البعيد عند اليونان ، الى التنميق الباطل والجدل الديني والثرثرة عند البيزانطيين . ورجال التفتيش في القرون الوسطى بايمانهم المتقد ، وغرائزهم الثابتة على المحافظة الشديدة يختلفون في الظاهر عن اليعقوبي العصري بالحاده الهائل وفطرته الثورية . لكن برهة تدبر تدلنا بان الثاني نسيب الاول يمت اليه بحبل القرابة ، ولم يتغير فيهما الا اسم المعتقد

ونضيف الى هذه العناصر الاساسية للخلق ، الثابتة ثبوت الفقرات في الحيوانات الفقرية ، عدداً من عوامل اخرى تتغير كما تتغير القامة وهيئة الجسم واللون في هذه الحيوانات . وهي التي تحملنا على القول بان الاذواق والافكار تتغير من عصر الى آخر . غير ان هذه التغيرات لا تؤثر في شيء من عناصر الخلق الاساسية . ويمكن تشبيه هذه الاخيرة بالصخرة التي يضربها الموج على الدوام دون ان يهزها ، والاولى بطبقات الرمل

والاصداف والمشائش التي يضعها الموج على تلك الصخرة ليستردها بعد قليل

كان للعرب ذكاء حاد ، وحماسة شديدة ، واستعداد فني وادبي لا يمكن نكرانه ، وما كانوا لولاه ليصلوا الى هذه الدرجة من الحضارة

ومما يستحق الاهتمام ان السجايا الحربية كانت ملازمة للعرب بل لاصقة بهم بحيث ان الجزيرة لم تكن الا ساحة حرب دائمة ، يفتك فيها بعضهم ذم بعض . فلما خضعوا لذلك المعتقد كانت السجايا الحربية السالفة الذكر من اهم اسباب نجاحهم . وهذا دليل على ما قدمناه من ان الاستعداد الواحد ينتج نتائج مختلفة باختلاف الظروف ، وان نفس الغرائز التي تسبب النهضة ، تحدث السقوط فيما بعد

وقد كان للعرب نهضة مهيئة لتلك النهضة الكبرى

ولم تقتصر تلك النهضة على الادب والشعر بل شملت الدين . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات . فلم يكن اهل الجاهلية يعرفون لمن يصلون ولا الى من يتوسلون ، فقد يذبح احدهم للصنم ويدعو

الله . وفيهم عبدة الحجارة والنـار ، وعبدة الاصنام ، وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من انواع العبادات المتضاربة. وظهر في اثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام واصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم ، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهمّ بعضهم بادعائها ، مما يدل على تنبه الاذهان الى امر الدين ، والافتكار في عوقب الاعمال .[1]

وكانوا يقتنون بضعة عشر علماً كعلم النجوم والانواء ومهاب الرياح ، والميتولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر . وكان اعتناؤهم بهذا الاخير اكثر من البقية ، حتى انهم نظموا في قرن واحد او قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتمدن في عدة قرون ، وخصوصاً في العصر الجاهلي . فالياذة (هوميروس) و(الاوذيسية) هما معظم شعر الجاهلية اليونانية ولا يزيد عدد ابياتهما على ٣٠٠٠٠ بيت . اما العرب فيؤخذ مما بلغنا من اخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف

(١) جرجي زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — جزء اول صحيفة ٢٢

اضعاف ذلك . فهم يعدّون منظوماتهم بالقصائد وليس بالابيات .
فقد ذكروا ان ابا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من اشعار
العرب ١٤٠٠٠ ارجوزة ، غير القصائد والمقطعات (ذكره ابن
خلكان جزء اول صحيفة ١٢١) . وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠٠
قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة (في
كتاب النجوم الزاهرة ، صحيفة ٤٢٠). وقال ابو عمرو بن العلاء :
ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافرا
لجاءكم علم وشعر كثير .

وزد على ذلك أن العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه
وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء
مما حمل اليونان او الهنود او غيرهم على النظم ، وانما اندفعوا
اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم
ونضجت قرائحهم كما حدث للرومانيين . فان الشعر لم ينظم
بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر
اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام (اغسطس) و (طيباريوس)
نحو القرن الثامن من تأسيس (رومه) ثم اخذ في التقهقر . ويقال
نحو ذلك في دول اوروبا الحالية فان الشعر لم ينضج عندهم الا

بعد نشأة دولتهم وتقدمهم في العلم والأدب .[1]

كان الشعر فطريًا في العرب يندر من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص، ناهيك بالنساء، فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشواعر. ومن لم يستطع الشعر، لم يفته الاجتماع في المجالس العمومية لسماعه او مناشدته . وكثيرًا ما كانت النساء يعقدن المجالس لمناشدة الاشعار وذكر الشعراء ونقد اقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض . وكان اكثرهم ينظمون الشعر وهم اطفال لم ينظروا في الادب والشعر . فمن شبّ ولم تنفتق قريحته عدوا ذلك نقصًا فيه وعيبًا على اهله

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقات ولذلك يقال لها المذهبات ايضًا كمذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير [2]

« وبالجملة فقد كان الشعر شائعًا في العرب ولم تخل قبيلة من شاعر او غير شاعر يحمي زمارها ويصف عواطفها . وكان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي — الجزء الثالث — صحيفة ٢٤ —
(٢) العقد الفريد — الجزء الثالث - صحيفة ٩٣

الشعر عندهم مستودع الاخبار وخزانة الآداب والاخلاق،
ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب .

وعندي ان الغاية الكمالية هي في رأس عوامل نهضة الامم اذ انها تجعل القوى متضامنة متحدة . فقد جمعت الغاية الكمالية التي تمت على يد محمد عليه السلام، العرب بوثاق وثيق وكانوا قبل ذلك قبائل مبعثرة يغير بعضهم على بعض . فهذه الضالة او الغاية الكمالية كانت كافية لان تبعث الحمية في نفوس اتباعها بحيث انه يهون عليهم الموت في سبيل نصرتها .

ان الغاية الكمالية هي من اعظم عوامل الارتقاء، دون نظر الى حقيقة هذه الغاية او موضعها من الصحة . بل يكفي ان تكون قوتها عظيمة لتحدث في الشعب عواطف مشتركة، وآمالاً واحدة، وايماناً متيناً، واستماتة في سبيل تحقيق هذا الخيال

كانت غاية الرومانيين الكمالية عظمة (رومه)، وضالة المسيحيين الأمل باكتساب حياة سعيدة كلها لذة وانشراح، وللرجل في العصر الحاضر آلهة جديدة خيالية يشيد لها التماثيل والمعابد، تؤثر في مجرى حياته تأثيراً كبيراً . والتاريخ ليس الا سرد الوقائع التي قام بها البشر في متابعة الضالات او المقاصد

العليا ، التي لولاها لبقي الانسان في الحالة الوحشية ، ولما كان هناك حضارة . يبتدئ الانحطاط في شعب من الشعوب حين يفقد ضالته الخيالية المحترمة لدى جميع افراده الذين يكونون مستعدين للذب عن حياضها

كانت الغاية الكمالية التي قصد اليها محمد (صلعم) دينيةً سياسية. والمملكة العربية تقدم لنا الحادث الوحيد الذي كانت آخرته تأسيس مملكة باسم ديانة ، واصدار جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية من هذه الديانة

هل يكفي هذا العامل (الضالة اوالغاية الكمالية) اذا قرنّا اليه ماذكرناه سالفاً لبيان عظمة العرب وشرح اسباب نهضتهم؟ — كلا.

كان العالم القديم متداعياً للسقوط او بالاحرى متهدماً ، وكان هناك شعب مستحوز على المزايا الحربية ، تضمه عروة المعتقدات المشتركة ، وهو مستعد للانقضاض على ذلك العالم . بقيَ الاستيلاء عليه ، بلْ حفظه بعد ذلك

يرى المطلع على تاريخ العرب قبل الاسلام انهم لما خرجوا المرات العديدة من الجزيرة ينوون الاستيلاء على البلاد الفارسية، او تخضيد شوكة المملكة الرومانية ، ورجعوا بالخيبة والفشل،

ما كانوا ليتمكنوا من النجاح باعادة الكرة . وقد كانوا تعلموا من اعدائهم بعض الفنون الحربية كتعبئة الجيوش مثلاً وتنظيمها ، الى ان اصبحوا معادلين لهم مماثلين من الوجهة الحربية ، وحينئذ اصبح فوزهم مضمونا . فكان كل جندي في الجيش العربي مستعداً لتضحية ذاته في سبيل نصرة الفكرة التي كان لاجلها يحارب ويناضل ، بينما كان اعداؤهم عارين من كل اخلاص وحماسة ، واستماتة وايمان

كان يمكن ان تعمي فتوحات العرب الاولى ابصارهم وبصائرهم ، وتؤدي بهم الى ذلك التهور الذي لم تنج منه امة من الامم ، بان يعاملوا المغلوبين معاملة سيئة ويحملوهم قهراً على اعتناق ديانتهم الجديدة التي كان جل قصدهم نشرها في العالم . فلو ارتكبوا هذا الغلط لقامت الشعوب التي لم تخضع لهم تماماً ، تحمل لواء الثورة والعصيان . فالشطط الذي ركبه الصليبيون حين دخلوا سوريا ، بهذا الشأن ، ابتعد عنه العرب بدقة واعتناء شديدين .

لقد اظهر العرب نبوغاً سياسياً يندر في غيرهم من معتنقي ديانة جديدة ، اذ فهم الخلفاء الاولون ان الاوضاع والديانات

لا تُلزم بالقسوة . والتاريخ يدلنا بأنهم حيثما دخلوا (مصر وسورياً واسبانيا) كانوا يعاملون الاهالي برفق ، تاركين لهم الخيار بالسير على الشرائع والمعتقدات التي يرغبونها ، ولا يطالبونهم مقابل محافظتهم عليهم الا بجزية قليلة بالنسبة للضرائب التي كان يتقاضاها منهم الاسياد السالفون . والخلاصة ان التاريخ لم يرَ تساهلاً كتساهل العرب ، ولم يشهد ديانةً كديانتهم في الرقة والتسامح

ان هذا التسامح الذي تجاهله للان اكثر المؤرخين او سهوا عنه يشرح السهولة التي امتدت بها فتوحاتهم ، وتعممت ديانتهم بتلك السرعة الفائقة ، وكذلك شرائعهم ولغتهم

ومعلوم ان هذه الأخيرة ظلت تحفظها الشعوب التي تلقتها قبلاً بصدر رحبٍ ، حفظًا راسخًا قاوم جميع الغارات ، فثبتت حتى بعد انسحاب العرب من مسرح التاريخ . ويظهر هذا الحادث بوضوح باهر في مصر . فأن الفرس واليونان والرومان الذين حكموها لم يقدروا على هدم حضارة الفراعنة ابداً ليحلوا محلها حضارتهم .

ان اسبابًا اخرى عدا التسامح والرقة اكدت نجاح الغاية

الكمالية العربية وجدت المثبات للاوضاع والنظامات الصادرة عنها ، هي ان هذه النظامات بسيطة جداً تتفق بسهولة زائدة مع احتياجات الطبقات الوسطى من الشعوب الخاضعة ، اي سوادها الاعظم . وبما لم تكن موافقة تماماً لتلك الحاجات ، كان العرب يعرفون كيف يبدلونها باحسن منها تبعاً لضرورة الحال . وهكذا كانت الاوضاع الاسلامية في الهند والفرس وجزيرة العرب ، وافريقيا البربرية ومصر ، تقدم لنا مع انها صادرة عن قرآن واحد ، فروقاً عظيمة . وصلنا هنا الى الحين الذي افتتح العرب فيه العالم ، غير ان مشروعنا لم ينته بعد ، اذ ليس طور الفتوحات الا قسماً من تاريخ اتباع النبي الكريم . فانهم بعد ان حكموا العالم وشيدوا صروح حضارة عظيمة لا تقوى العوامل المتقدمة على بسطها وتأويلها ، دخل حينئذ عاملان جديدان :

كانت هذه الحضارة ناشئة عن سببين : البيئة الجديدة التي وجدت فيها العرب ، وقابليات ذكائهم الفطري

اما البيئة فمعروفة . فان العرب لما خرجوا من صحرائهم شاهدوا انفسهم بجانب تحف مدهشة ، وطرف تبهر الانظار :

تلك هي الحضارة اليونانية الرومانية . فادركوا افضلية اعدائهم الادبية كما ادركوا افضليتهم الحربية، فاجتهدوا ببلوغ مستواهم

غير انه يلزم لتمثيل العرب حضارةً راقية ان يكونوا حائزين روحًا عالية . ومساعي البرابرة التي ذهبت عبثاً في محاولتهم اكتساب الحضارة اللاتينية تظهر صعوبة هذا العمل الكبير . بيد ان العرب لحسن الحظ لم يكونوا برابرة . نحن نجهل ما كان من حضارتهم قبل النبي عليه السلام، حين كانوا ذوي علاقة تجارية مع المحيطين بهم والمجاورين لهم . ولكنا نعلم انـــه لما ظهر عليه السلام كانوا حائزين على درجة من الرقي الادبي عالية، بأن كانوا مؤهلين لتعلم ما يريدون اكتسابه . لم يأت العرب عند درسهم الحضارة التي رأوا انفسهم بغتةً في وسطها بشيء من تلك التقاليد التي كان البيزانطيون يئنون تحت عبئها . فهذه الحرية الفكرية كانت من اسباب توسعهم في العمران والمدنية . والغالب في حياة الشعوب ان يخضع البشر لنير التقاليد القديمة ويحول بينهم وبين كل ترقٍ تجددي سلطان الماضي بعد ان لعب دورًا مهماً نافعا

ان نزعة العرب الفطرية، وخيالهم العزيزي، وروحهم

الادبية والابتكارية ظهرت بعد قليل في آثارهم الجديدة حتى انهم اثروا في وقت قليل في البناء والفنون والعلوم ، ووضعوا عليها ذلك الطابع الخاص الذي يعرفنا بنظرة واحدة انها صنع ايديهم ، وثمرات افكارهم ، حتى ان الفلسفة اليونانية التي لم تكن لتتفق مع روحهم ومزاجهم لم يقربوها ابداً .

هذه هي اسباب النهضة العربية ،

فانظر الى الاجداد كيف سعوا
للمكرمات واية سلكوا
هلا اخذت بهديهم فهم
تركوا العلى لك فارغ ما تركوا
واطلب مداهم انهم نفر
عاشوا بذكرهم وقد هلكوا

عوامل السقوط

قلّ من جاوز من الشعوب مستوى
العرب ، لكنه قلّ كذلك من نزل
في الانحطاط الى درجتهم .

غوستاف لو بون

يمكن ايراد اغلب العوامل التي ذكرناها عن نهضة العرب ، في شرح سقوطهم . ويكفي الاتيان على ذكر ذلك العامل الخطير وهو الوقت المناسب ، لنرى اطيب الخلال وانفعها تحدث نتائج سيئةً مشؤومة . وهذه الحالة مشاهدة في الافراد كما في الشعوب . فان استعداد الذكاء وقابليات الخلق التي تسبب النجاح المؤكد في وقتٍ ما ، تكون السبب في الفشل وحبوط المسعى في زمن آخر . وقد بينا سابقًا ان السجايا الحربية التي كانت من قبل سببًا في خزلانهم اذ كانوا يستعملونها في مناوشة بعضهم بعضا ، اصبحت نافعة لهم لما وحّد محمد (صلعم) قواهم . كذلك نفس هذه السجايا الحربية التي افادتهم في عصر فتوحاتهم صارت وبالاً عليهم حين انتهت هذه الفتوحات . فان عادات التخازل

والتعزب الموروثة فيهم اتجبت لما رجع السلطان اليها تقسيم المملكة ، فكانت سبب سقوطهم . وان منازعاتهم الداخلية هي التي ادت في الحقيقة الى ضياع اسبانيا وصقليا من ايديهم . ولم يتمكن الافرنج من طردهم الا حين شغلوا بمنافساتهم العدائية الدائمة .

وكذلك اوضاع العرب السياسية والاجتماعية التي ذكرناها كعوامل للنهضة ، اصبحت بين عوامل الانحطاط

لم ينجح العرب في تلك العالم ، الا يوم تمكنوا بواسطة ديانة محمد (صلعم) من الخضوع لشريعة ثابتة . وهي وحدها تقدر على لم شمث القوى المتبعثرة في جزيرة العرب . فوثاق هذه الشريعة المحكم ظل حيناً موافقاً ما دامت اوضاع النبي ذات علاقة مكينة مع حاجيات الأمة العربية . فلما اصبحت تبعاً لترقيات الحضارة محتاجة لأن تتغير كان نير التقاليد الموروثة ثقيلاً جداً لا يتمكنون من خلعه والتملص من ربقته . واوضاع القرآن التي كانت مظهراً لاحتياجات العرب في عهد النبي الكريم اصبحت خلاف ذلك بعد عدة قرون . وبما ان هذا الكتاب كان شريعة دينية ومدنية وسياسية معاً ،

يجعله منبعه الالهي ثابتاً لا يتغير ، اصبح مستحيلاً قلب الاساسات التى بني عليها . وقد ظهرت نتائج المغايرة لما تسرب الوهن الى سلطان العرب فقامت تلك الانقلابات والمعاكسات الدينية بحجة تجديد المذهب الاسلامي . فكانت ترمي الى ارجاع المسلمين الى القرآن ، حرفاً بحرف دون ان يتعدى احد هذه الدائرة الضيقة ، بينما كان العرب في عصور بغداد وقرطبة الذهبية ، يعرفون كيف يحدثون على النصوص ، التبديلات التى تستوجبها الحاجات والظروف ، وعلى الأخص الشعوب التي تود اعتناقها والسير بموجبها . وان ضرر عدم التغيير زمناً مديداً ، قد ظهر في اوضاع العرب السياسية . فهذه الاوضاع التى كانت تجعل في يد رجلٍ واحد كل القوى الحربية والدينية والمدنية ، هي وحدها تكفل لنا تأسيس مملكة عظيمة . ولكنها كانت مع ذلك ، الأقلّ استعداداً لتحقيق دوامها .

ان لتلك الحكومات المطلقة الكبرى، التي تنحصر جميع سلطاتها في فردٍ فذٍّ من افرادها ، سلطاناً كبيراً لا يقاوم في زمن الفتوح . غير انه لا ينجح الا بشرط ان يكون في رأسها على الدوام نوابغ ورجال عظام، واليوم الذي ينعدم فيه هؤلاء

يصبح كل ما بني وشيد خراباً يباباً

كان تجزؤ المملكة اول نتائج نظام العرب السياسي. فعمال الخلفاء الذين كانوا مثلهم تجسمت فيهم كل القوى الحربية والدينية والمدنية المتعلقة بولايتهم توصلوا بعد زمن قليل الى محاولة الاستقلال بالحكم. ولما لم يكن يوازي سلطتهم سلطة اخرى مماثلة لها، صار من السهل اعلان سيادتهم المطلقة على البلاد. ثم نجاح بعضهم همم الاخرين ودفعهم الى مجاراتهم واحتذاء مثالهم. وهكذا صارت اهم ولايات المملكة، ممالك مستقلة تام الاستقلال

كان لهذا التجزء نتائج نافعة وضارة: ضارة لانها اضعفت سلطان العرب الحربي، ونافعة لانها كانت تسهل ترقيات الحضارة. ومصر واسبانيا ما كانتا لتصلا الى تلك الدرجة العالية لو بقيتا متعلقتين بالمركز. ولو ادارها حكام او ولاة يتغيرون من حين الى آخر، لا همّ لهم الا الثراء، دون البلاد، لاصبحتا في ذلك العهد تحكيا ولايات الدولة العثمانية اليوم. لقد كان تمدن بعض هذه الممالك الصغيرة المستقلة عظيماً جداً، ولكنه سرعان ما صارت جميعها الى ما صار اليه غيرها من

الممالك القديمة ، حيث القدرة الحربية ، بدلاً من ان تكون مؤسسة على معدات مهمة ، كانت مؤسسة على عدد المحاربين وقيمتهم العسكرية تودي بهم هجمة واحدة . ان المدنية ترقق العادات ، وتربي الفكر ، لكنها لا توسع الغرائز الحربية ولا تنميها ، فتهيء سقوط الممالك – لابن خلدون في مقدمته بحث ضافٍ جليل في هذا الموضوع – . والشعوب التي تملك سعة ويساراً تجد نفسها على الدوام مهددة من الذي امسك العسر وضيق ذات اليد بخناقها ، حين ترمي الى استبدال ما هو احسن من حالتها بها . على هذه الصورة انقرضت اغلب الحضارات الكبرى : كذا كان مصير الرومانيين ، وكذا كان مصير العرب ! ان الفاتحين المتعددين من اتراك ومغول اكتسحوا بلاد هؤلاء الذين استبحر عمرانهم ونمت حضارتهم ، ولو هاجموهم حين كان اتباع النبي شارعين بتأسيس مملكتهم وهم حينئذٍ شعب جاف اعتاد على التعب وشظف العيش ولمّا يفسده الترف ، لفشلوا كل الفشل .

ينبغي ان نذكر بين اسباب سقوط العرب ، تعدد الأقوام الخاضعة لحكمهم . وتأثير هذا العامل في الانحطاط يظهر بطريقين

مختلفين . وكلاهما مشئوم . فان وجود الأقوام الكثيرة يجعل الاحتكاك من جهة شديداً والانشقاقات عنيفة ، ومن جهة أخرى يسبب التزاوج الذي يفسد سريعاً دم الغالبين .

والخليط من الشعوب المتعددة في مملكة واحدة كان على الدوام سبباً في الانحطاط العاجل . والتاريخ يدل بانه لا يمكن المحافظة على حكم اقوام عديدة ، الا باتباع شرطين اساسيين : الأول ان يكون سلطان الفاتح عظيماً يمام الجميع ان مقاومته من العبثيات ، والثاني ان لا يتزاوج الفاتح وتلك الشعوب المغلوبة على امرها فيذوب فيها ، ويندغم بها .

اما الشرط الأول فلم يتبعه العرب ابداً . والرومان انفسهم الذين لم يتبعوه دائماً سقطوا اذ نبذوه تاما . وقد كانت السهولة التي عامل بها اسياد العالم القديم المغلوبين ، ومنحهم البرابرة الدخلاء كل حقوق الوطني ، من اهم الاسباب التى انتجت سقوط العالم الروماني . بذا اصبحت (رومة) مأهولة بالشعوب المديدة ، فلم يعد يحكمها الرومان وقد خمدت فيهم المشاعر التي عملت على عظمتهم من قبل . كان الوطني الروماني لا يتردد في سفك دمه لأجل (رومه) ، لأن عظمة (رومه) كانت آلها

اذ صارت البلاد الاسلامية مسرحاً تتطاحن فيه الاحزاب ، حتى انه بينا كان المسيحيون يحاصرون آخر مأوى للمسلمين في الأندلس ، كان اشتباك هذه الاحزاب بالغًا اشده ، وتناحرهم في اقصى درجاته . ان وجود الاقوام المختلفة في البلاد الخاضعة للدين الاسلامي سبّب تلك المفسدة التي ذكرناها ، وهي امتزاج العرب باولئك الاقوام. ولو كان ذلك بشعوب ليست احطّ منهم كثيرًا كمسيحيي اسبانيا مثلاً ، لكسبوا بعض المزايا ، اما باختلاطهم ببعض الشعوب الاسيوية والبرابرة فقد خسروا شيئاً كثيرًا . وفي كلتا الحالتين ، لا بدّ ان ينتهي التزاوج بهدم الخصائص والسجايا التي ينظّم مجموعها عرقهم الجنسي . والواقع انه لما خسفت شمس سلطتهم السياسية تمامًا بضياع الاندلس ومصر ، لم يكن في البلاد الخاضعة لهم الا القليل من الاعراب

ولو ضربنا صفحًا عن الغارات والاسباب العديدة التي آلت الى سقوط العرب ، لكان اختلاطهم بغيرهم من الاقوام كافيا لاحداث هذا السقوط . ومثل ذلك مرّاكش ، فان الغارات

الاجنبية لم تؤثر عليها . ومع انها كانت في مستوىً من العمران تحسدها عليـه الاندلس ، وقعت الان في درجة النصف من البربريـة . فان التزاوج مع العنصر الذنجي اسقط كثيراً من حضارة اهليها واباد غضرائهم ، حتى ادعى البعض ان المستقبل فيها للخلاسيين ، وان العصبية المراكشية الاصلية ستقع مع توالي الزمن في زوايا النسيان .



الفصل الثاني

الغاية الكمالية

— ضرورتها للافراد والجماعات —

ليس التاريخ الا سرد الوقائع التي قدمها
البشر في متابعتهم غاياتهم الكمالية

غوستاف لوبون

ضرورتها للافراد

تقول احدى كتابات الهنود المقدسة ان « الانسان تبع للفكرة » ، وانه « كما يفتكر الرجل يكون » او بالاحرى «هو مركب من اعتقاداته ، فكما تكون يكون » .

ان هذه الآراء هي باتفاق تام مع علم النفس الحديث الذي يثبت ان الافكار هي الاساس الراسخ للاعمال . وفي (الثالوث) النفسي ان الارادة تدفع ، والفكر يقود ، والسعي يتمم ، وما العمل الا مظهر الفكرة

فمصير الرجل من الرجال ، والامة من الامم ، يتوقف على

الافكار السائدة . فالمصور الذي يتناول قلمه، وقلبه طافح بمنظر الجمال، فيبرز لعالم الوجود عملاً متقناً يبهر الانظار، ويستأسر الالباب، يشبه فرنسا اذ ثملت بخمرة الحرية، وفكرة الاستقلال، فألقت بنفسها على اوروبا لتحطم قيودها. على هذا النمط تتقدم الفكرة العمل، فالفكرة اذن مبدعة والعمل مستحدث تابع .

بيد انه يوجد مع كل ذلك فرق عظيم بين الغايات المتنوعة والمبادئ العديدة . فمنها المظلمة المبهمة، والمترددة الباطلة التى لا تترك اثراً ثابتاً في الاخلاق، ومنها الراسخة القويمة التي تدع فيها اثراً لا يزول ابداً .

ان الفكرة الثابتة او الغاية الكمالية، كما يعرفها علماء النفس، هي التي تستحكم في مخيلة شخص من الاشخاص، فيتشبث بها رغماً عن الوساوس والمماحكات، او بالاحرى عن كل تلك القوى الخارجية التي تقذف غالباً بالانسان في هاوية لا قرار لها، وترمي بضعاف الاحلام في وهدة لا مناص منها .

اذا كانت هذه الفكرة حسنةً جميلة، او كان هذا المبدأ موافقاً للنظامات الطبيعية، قادت صاحبها الى ذروة الفضائل. واما اذا كانت باطلة تافهة، او كان مبدؤها مغايراً لنواميس الوجود،

اخذت بيد رجلها المنكود ، فالقته في دركات الجنون المطبق والتعصب الاعمى

ومن فاتته الغاية الكمالية كان كريشة في مهب الريح ، اتفقت عليها عواصف الاحوال ، وزوابع الاهواء ، فاضحت تسير خاضعة للنواميس الطبيعية ، لا وجهة يقصدها ، ولا ضالة ينشدها

اما من بنى لنفسه مبدأ عاليًا خاصاً به فاتبعه ، وجعله كعبة يحج اليها ، فانه يتقدم سائراً الى الامام ، دون ان يرتد على اعتابه ، وان رجع خطوة او خطوتين ، كان ذلك استعداداً لوثبة هائلة تخني ظهر العوائق والعقبات ، فهو بمثابة المركب الذي يطيع الدفة في سيره فوق الامواج المتلاطمة ، في بحر يعب عبابه .

ان اهم امر في تربية النشء ، هو ان نضع امام عينيه مبدأ متين العرى ، قوي الدعائم ، فاضلاً سامياً ، مستخلصاً من حياة اعاظم الرجال وشهيرات النساء ، ليكونوا قدوة ينسج على منوالها ، ومثالاً يتبعه في مآثرهم وفضائلهم ، وجلائل اعمالهم . لان خيال الولد المتقد ، وذكاءه الفطري يبعثان الحياة في هذه الصور العظيمة التي تقع تحت انظاره ، فيختطف منها مبدأ ثابتا . فان طمحت نفسه لمنصة الحكم ، او صبت ميوله الى

التجارة، او سمت رغبته الى الفنون الرفيعة، او اراد ان يكون وطنياً صادقاً صالحاً، وجد ذلك المبدء طبق رغائبه ومطالبه وميوله وآماله.

ان الكتب والجرائد، والقصص والروايات، والصور والنقوش هي التي تنتج لنا رجالاً اما اخياراً اطايب، واما اشراراً مرزولين. فكما انها تقدر ان تسمو بالناس الى شريف المبادئ ونبيل المقاصد والغايات الكمالية، كذلك يمكنها ان تحطّهم الى الافكار الفاسدة والآراء السخيفة، لا سيما الطلاب فانهم اكثر انطباعاً من غيرهم، واشد انفعالاً واقرب منالاً من الطبقات الاخرى. فالكاتب الذي يقدم للشعب افكاراً شريفة مستقيمة ترنّ على اوتار الاخلاص والتفاني والحماسة، يساعد في تشكيل امة عظيمة هادئة، ساكنة مطمئنة سعيدة. واما من يقدم لها ثمالة الكأس من الافكار الدنيئة السافلة، والمزخرفة الخلابة، والفارغة الموجاء، فهو اكبر عون على اسقاط تلك الامة.[1]

* * * * * *

(١) السيدة آني بيزان . مقال في جريدة « الماتين » الفرنسية

والخلاصة ان النابات الكمالية هي المسيرة للافراد ، فالذين يسعون وراء تسنيم هذا الينبوع الدافق العذب ، الا وهي الفكرة الحسنة والمبادئ القويمة ، ثم اعداء الانسانية ، وعبء ثقيل على عاتقها ، يقوض اركانها ويهدم بنيانها ، ويقودها الى الخراب .

وليس لافراد الامة العربية ، من غاية كمالية اسمى واعلى من النهضة بالعرب ، واعادة مجد العرب !

—ooo—

ضرورتها للجماعات

ليس التاريخ الا سرد الوقائع التي قام بها البشر منذ اقدم الازمنة في متابعة الغايات الكمالية، او هو بالاحرى معتقد يموت وآخر ينبثق، ضالة تضمحل، واخرى تدب فيها الحياة . وما من كتاب عن الحضارات الكبرى كاليونانية والرومانية والعربية ، الا وذكر هذا العامل في رأس العوامل . فان الايمان المشترك بين افراد الامة من الامم يهبها قوة هائلة، حتى اذا كان ايماناً وقتياً . فقد شهدنا الفرنسيس في عهد الثورة ، وقد احتدم في صدورهم اعتقادهم العام بالديموقراطية الشريفة ، يقفون في وجه اوروبا بأسرها ظافرين منتصرين .

« لاتخرج الامم من الهمجية الا حينما يكون لها مقصد سام او غاية كمالية تشخص اليها ، وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة ومغالبات متجددة . وسواء كان هذا المقصد العام الوهية (رومة)، او تعظيم (اثينا)، او نصرة الله، فهو يكفي لتوحيد افكار الامة وهي في دور التكوين . »

قال الدكتور غوستاف لوبون:

ادركت الامم فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها ، (هذا خطأ محض . فان الجماعات — والامم الخاضعة لمعتقدات عامة هي كذلك جماعات — لا تدرك ولا تفطن ابداً كما يقر به العلامة في جميع موءلفاته بل تسير منقادة للشعور او العاطفة ، تخضع لها قهراً ، دون ان تعلم فائدة اجتماعها على هذه المعتقدات ، او ضرر هجرانها اياها . ولعله خطأ من حضرة المترجم .) فعبد الرمانيون مدينة رومة عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة رومة ، واستمر البرابرة الذين ضربوا املكها على همجيتهم ، حتى اذا رسخت فيهم بعض المعتقدات العامة ، وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف ، وخرجوا من الفوضى .

وعليه تعذر الامم في دفاعها المستميت عن معتقداتها لان هذا التعصب هو في الحقيقة ارقى الفضائل في حياة الامم ، وان كان مذموماً من الوجهة الفلسفية

ما احرق اهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للذب عن معتقد عام ، او لبث معتقد عام جديد في النفوس ، وما مات

الكثير من المخترعين والمبدعين ، والاسى ملئ قلوبهم الآ لانهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات ، وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها ، وما ماتت الملايين في ساحة الوغى الا بسببها ، وكذلك يكون في مستقبل الايام .

ان من الصعب غرس معتقد جديد ، لكنه اذا تمكن من النفوس يظل شديد التأثير زمناً طويلاً ، وكيفما كان خطأً من الوجهة الفلسفية فأنه يتسلط على اكبر ذوي الالباب . ومتى تمكنت عقيدة جديدة من مخيلة الامة اصبحت مصدر نظاماتها وجميع فنونها ، وقاعدة سيرها ، بل حجر الزاوية لكل اعمالها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها ، فترى اهل العزائم لا يفكرون الآ في تحقيقها ، وواضعي القوانين الآ في الاخذ بها ، والفلاسفة وارباب الفنون والكتاب الآ في تمثيلها على صور شتى . (١)

للاعتقاد قوة لا يغلبها الا قوة اعتقاد مثلها . فليس للايمان عدوٌ الا الايمان . والنصر حليفه متي كانت القوة المادية التي تعترضه خادمةً لشعور ضعيف ومعتقدات تولاها الوهن . لكن

(١) روح الجماعات — ترجمه فتحي باشا زغلول .

اذا اصطدم بايمان بالله في قوته اصبحت الحرب عوانًا ' وصار النصر معروفًا بالاحزاب القوية التي تكتنف الغالب منها .

وان بهذه العدة الضئيلة في النظر ' القوية في الاثر — العقيدة او الغاية الكمالية — فتح رجال صحاري بلاد العرب قسمًا من الارض لاغريقية الرومانية وشادوا دولة من اضخم الدول التي ورد ذكرها في التاريخ كما تقدم ' وبمثل هذه القوة الادبية اعني الغاية الكمالية وسلطانها على النفوس وقفت جنود الكونفانسيون البواسل في وجه اوروبة بأجمعها [1]

اذا تم فقدان الغاية الكمالية ' تم فقدان الامة ' فتعود خليطًا من الناس كل يعمل على شاكلته ' وترجع الى ما كانت عليه في بدواتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور ولا امل . هنالك تنعدم اساطين المدنية وتمسي هدفًا لحوادث الاتفاق وتصير العامة سلطانة على الامة وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية انها باقية في بهائها لان محياها لا يزال يضيء بما البسته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ' ولكن الحقيقة

---

(١) سر تطور الامم — ترجمة فتحي باشا زغلول

انها بناء اكله السوس وفقد دعائمه ، واشفى الى السقوط مع اية عاصفة .»[1]

والخلاصة ان انبثاق الغاية الكمالية ، او المقصد العالي ، او العقيدة العامة ، كان دائماً طليعة لحضارة مقبلة .

فمن همجية الى حضارة وراء معتقد كمالي ، ومن حضارة الى انزواء فموت مع اضمحلال هذا المعتقد ، ذلك مدار حياة الامم .

ولا تنفع حيلة في معتقد رسخ في النفوس !

وليس لمفكري الشعب العربي من مشروع الآن افضل واسمى من جعل المبدء العربي ديانة للعرب !

---

(١) روح الجماعات

الفصل الثالث

الثورات

— والثورة الفكرية —

١ — تعريف الثورة

تطلق كلمة الثورة اطلاقاً عاماً على كل الانقلابات الفجائية في المعتقدات والآراء والمذاهب، او التي تظهر كذلك .

تنتهي الثورة برسوخ معتقد، ولكنها تبدأ غالباً بتأثير محركات ادبية خالصة كالامتعاض من الارهان بالضرائب، او كره الدور الاستبدادي الشديد، او بغض الحاكم لظلمه وهلمّ جراً .

ومهما كان اصل الثورة فانها لا تنتج شيئاً الاّ بعد تسربها الى اعماق الجماعات. فالجماهير اذن ليسوا موحي الثورة ومصدرها، بل حبل صلتها وركنها الركين . والثورات الفجائيـة وهي السياسيـة على الغالب، التي تبهر اعين المؤرخين، اقل الثورات قيمة . اما الثورات الكبرى الصميمة فهي التي تحدث في العادات والمبادي والافكار . وما كان تغيير اسم الحكومة

اوطراز الادارة ، او القانون ، تغييراً لحالة الشعب العقلية ابداً ، وليس قلب اوضاع الامة بدليل على قلب روحها البتة . [1]

ان الثورات الحقيقية التي تؤثر في مصير الشعوب وحياة الامم هي الحادثة بشكل هادئ بطيء قلما ينتبه اليه المؤرخون. وكلمة التطور او النشوء Evolution كما ارتآه (لوبون) اصلح للأفصاح عنها من كلمة الثورة Révolution

وللثورة اقسام ثلاثة : علمية ، وسياسية ، وفكرية.

٢ — الثورة العلمية

ان الثورة العلمية اهم الثلاثة فلسفياً ، اذ هي تأتي غالباً بنتائج لا تصدر عن الثورات السياسية ولو لم تكن تستلفت الانظار .

اذا تغير ادراك البشر للكون منذ عهد « النهضة » Rénaissance فذلك لان الاكتشافات الفلكية ، وتطبيق الطرق الاختبارية ، قلبته رأساً على عقب ، فبرهنت لنا على ان الحوادث ليس خاضعة لهوس الآلهة بل لنواميس ادبية .

---

(1) غوستاف لو بون — Psycologie des révolutions

من هذه الثورات قيام النظريات الداروينية التي زعزعت اسس البيولوجيا ؛ علم الحياة القديم ، واكتشافات باستور التي جددت علم الطب في حياة صاحبها ، وهلم جراً .

وهذه الثورات العلمية التي تحدث في الآراء ويؤيدها الاختبار، هي فكرية نوعاً ما ، لا تؤثر عليها عواطفنا ومعتقداتنا ، بل انا نقبلها دون جدال ، لا حيلة لنا في ردها ، ونحن نراها او نرى اثرها بأم عيننا .[1]

وعلى الجملة فأن الثورات العلمية اكبر اثر بيّن في حياة البشر ، سلْ عنه الاكتشافات المستحدثة والاختراعات الجديدة

٣ — الثورة السياسية

يمكن ان تصدر الثورات السياسية عن معتقدات ترسخ في النفس ، او تتأصل في القلب ، ولكن اسباباً غير هذه كثيرةً تساعد في وقوعها وتأجج نارها .

فالاستياء في الدرجة الاولى ، ثم انه حين يتمم الاستياء يتألف حزب قوي لمقاومة الحكومة .

---

(١) غوستاف لوبون- Psycologie des révolutions

ومن الضروري ان يكون الاستياء قد تراكم اعواماً طويلة ، ليحمل الثمرة المطلوبة ، ولتكون نتيجته ابلغ واكثر وضوحاً . ولذلك ليست الثورة حادثاً ينتهي ، يتبعه آخر يبتدي ، بل هي — اذا كانت قوية حقيقية — حادث مستمر ، يسبق اوانه احياناً ، بعد ان يكون سائراً في نهج التطور النشوئي .

اما الثورات الحديثة ، من البرازيلية والبورتقالية ، الى التركية والصينية ، فحركات فجائية لم تؤدِّ الى قلب حكوماتها الا قلباً وقتياً

يغلب على الثورات الكبرى ان تبدأ من اعلى لا من اسفل ، لكنه بعد ان يتملص الشعب من قيوده ، تصير مديونة بقوتها الى جماهيره من العامة

ولا تكفي الحركة الحربية وحدها لقلب الحكومة ، اذ ان الثورة الحاصلة بهذه الصورة فقط ، لا يمكن ان تقدم لنا نتائج حسنة ، الا اذا كانت مؤسسة على استياء عام ، وآمال كبيرة ، او بكلمة واحدة على ثورة فكرية

والاستياء اذا لم يكن عاماً لا يكفي الثورة ، ولا تكون هذه تامةً الا اذا تخلل طيات قلوب الجماهير . يمكن بسهولة دفع

زمرة من الاشقياء ، او ثلة من العساكر الى النهب والتخريب والقتل ، ولكن يلزم لنهوض بشعب كامل ،او على الاقل بالقسم الاعظم من هذا الشعب ، عمل وجهد كبيران ، وقواد ماهرون يداومون على المغالاة في تصوير الحالة السيئة ، ويمثلون لجمل التزمر من هذا الموقف اشد فاشد ،ويقنعون الناس بان الحكومة هي السبب الوحيد لكل هذه الحوادث التعسة ، ويؤكدون لهم ان العهد الذي يعدونهم بتحقيقه ،عهد سعادة ورفاهية ،وبركة وهناء ،عهد ذهبي يحسدهم البشر عليه ،ويسجله التاريخ بين دفتيه[1]

فمتى نمت هذه الافكار ، وسرت في النفوس سريان الكهرباء في الاجسام ، وتممت بواسطتي الاقناع والعدوى ، ومساعدة الصحف والكتب ، والمدراس والجمعيات ، نضجت الثورة وحم القضاء ، وقضي الامر

لاجرم ان الساعة هائلة ، والمنظر فظيع ، ولكن هي الثورات لم تسلم منها امة ، وهو الناموس الطبيعي يقتضي بأن لانظام الا على اسس الفوضى ،وهي الظروف تحتم على الشعب في بعض الاحايين ان يسير على الجثث والجماجم ، الى النهضة

(١) غوستاف لو بون — Psycologie des révolutions

والعمران . وليس ثمت دساتير اخلاقية هنا ، فللأمم حق الحياة ، وجميع الوسائط التي تستعملها حق مشروعة .

٤ — الثورة الفكرية

الثورة الفكرية هي التي تحدث تدريجًا في روح الامة ، من مشاعرها وآرائها الى عاداتها ومعتقداتها ، لتوجد لها روحاً قويةً جديدة ، وبالنتيجة مشاعر وآراء وعادات ومعتقدات جديدة. وهي اهم بالمغبات من سائر الثورات ، تحدث انقلابات اجتماعية لا يعد شيئًا بالنسبة اليها ماتحدثه الثورة السياسية ، التي تكون احيانًا نتيجةً لها. كما تقدم . واعظم الثورات الفكرية في التاريخ قيمة وتأثيراً اما قام منها بشكل ديانة كالديانات المسيحية ، والمحمدية ، والبروتستانية .

ان الثورة الفكرية تربط الشعب بوحدة ادبية تنمي قوته المادية . وقد ظهر هذا لما جاء محمد (صلعم) فألف من قبائل الجزيرة شعبًا هائلاً ، شديد السطوة ، كبير السلطان .

وهي لا تكتفي بتوحيد الشعب ، بل انها تغير كذلك ما لا يقدر قانون ، ولا فلسفة على تغييره ، الا وهي مشاعر الأقوام

التي تكون الثورة فيها . وحينئذ تقوم مدنية جديدة على امتن الدعائم .

الا وان الثورات الفكرية ، مخ التاريخ ولبابه ، اذ هي التي تمنع الشعوب من ان تبقى مبعثرة ، كل من افرادها يعمل على شاكلته ، لا رابطة تجمعهم ، ولا عروة تضمهم ، فلاقوة اذن لهم . ولقد احتاج البشر اليها في كل العصور ، لان الافكار والمعتقدات هي التي تدير الانسان في جميع ما يأتيه من الاعمال . ولم تنجح فلسفة الى الآن لتحل محلها ، او لتقوم بوظيفتها حق القيام . وهذه الافكار والمعتقدات بعيدة جداً عن الجمود والبقاء على حالة واحدة ، ثابتة مع كر الغداة ومر العشي ، وتقدم المعارف ، ونمأ الحاجيات البشرية

. من السهل ايجاد فكر وقتي في عقول الجماعات . لكن من الصعب هدم اعتقاد تمكن منها ، او تقرير معتقد ليتأصل في نفوسها . ولا سبيل الى التغيير في الغالب الا بالثورات العنيفة ، بل ان الثورة لا تؤدي الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها اثر المعتقد في النفوس ، فهي تصلح لاستئصال تلك البقية التي تكاد تكون في حكم المهمل ، لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها

بالمرة. فالثورة التي تقبل، عبارة عن معتقد يدبر. »[1]

المدنية تسرع في خطاها، والافكار تتجدد على الدوام، وما كان شعب قط ليحفظ كيانه، او يعيش عيشة راضية، اذا كان واقفاً في مكانه لا يتحول، ولا يجاري المدنية في سيرها، والافكار في تجددها :

٥ — المحافظة والتجدد

اصعب الثورات واوعرها طريقاً هي الموجهة لا لبعض الاشخاص او للحكومة عموماً، بل للعوامل الخفية الكامنة، وهي التقاليد والعادات الموروثة، والافكار القديمة المستحكمة في النفوس. فالامم التي لا تجاري المدنية في سيرها السريع، ولا يهتدي المفكرون فيها او قادتها، الى طريقة حسنة يدفعونها بواسطتها دفعاً لطيفاً موافقاً، الى ترك تراثها البالي رويداً رويداً، واعتناق آخر يوافق روح الزمان يكون مصيرها الخراب، والموت الاجتماعي.

ولا يظن ظانّ انا نقصد بترك الامة تراثها، هجرها اياه كل

(١) روح الجماعات

المجر ، دفعة واحدة . فان هذا — اذا لم تنظر الى ضرره من جهة — مستحيل كل الاستحالة ، وليس الذين يقولون به ، كرجال الثورة الفرنسية مثلاً ، الا مصابين بالهوس القريب من الجنون ، بعيدين عن فهم الوراثة الروحية وحقائق تطور الشعوب التدرجي.

وكما قال احمد شعيب : ان علم الجماعة ينحو من جهة نحو نصرة المبادئ الجديدة ، لما في المستقبل او الحاضر من اشكال الحياة الاجتماعية التي تفضل الحياة الماضية ، ويحض من جهة ثانية على الاحتفاظ بالقديم ، ويصح للامم رعاية ماضيها ومقوماتها وخصائصها وان لا تقبل على التعديل والاصلاح الا بالتدريج . ونحن اذا نظرنا الى حقيقة الامر نجد ان ارتقاء الامة وتقدمها في سبيل الحضارة منوط قبل كل شيء بتغير تلك الامة وهذا يكون باتصافها باوصاف جديدة ، وبالتالي قبولها التغير بالتدرج البطيء.

وفي كل الاحوال يتوقف الارتقاء على امرين اثنين :

الاول : وجود قابلية التبدل

الثاني : التثبت والتأني (١)

يفهم من هذا ان محافظة الامم على التوازن بين ماضيها وبين

(١) الدولة والجماعة — ترجمها السيد محب الدين الخطيب

ما تتطلب اعتناقه من الجديد اصلح لها من الطفرة . وهذه حقيقة يقر بها جميع العلماء الاجتماعيين فلا تجد من ينكرها . اما ما نراه في بعض الشعوب من مخالفتها والزيغان عنها ، فذلك لانها بطبيعتها ثوارة على القديم ، عاشقة للجديد ، او لان بعض الظروف المشؤومة تضطرها الى ذلك .

والمهتدون الى مركز التوازن من الامم هم الرومانيون قديماً والانكليز الآن .

ذكرنا الرومانيين لان « الفتوحات اوجدت صلةً دائمة بين رومة والشعوب الاجنبيـــة ، فكان ذلك باعثاً لها على ادخال التعديل في اوضاعها ونظاماتها بما يظهر لها من العوامل الجديدة . واسعد ايام الرومانيين هي الايام التي تمسكوا فيها بمركز التوازن بين ذينك الطرفين .

وامة الانكليز كذلك ، حزت وحدها في هذه الايام حزوَ الرومان ، في التمسك بمركز التوازن بين الاحتفاظ بالقديم والأخذ بالحديث

تمسك الانكليز دون غيرهم باوضاعهم السياسيـــة والاجتماعية التي مرت العصور عليها . وما زالوا يصلحونها بتؤدة وانتظام وبلا تردد . وحريـــة بلاد الانكليز ليست من عمل

(كرومويل) ولا من آثار انصار الجمهورية في عام ١٦٤٩ بل هي بنت التاريخ الانكليزي . وهذه العظمة والقوة التي يباهي الانكليز بهما امم الغرب بأسرها نتيجة التوازن المعتدل بين التثبت وقابلية التحول [1]

* * * * * *

اما الامة العربية فلم تحتفظ بالتوازن الا في ايام الراشدين ، وان كانت في ذلك العهد محافظة على القديم بعض المحافظة ، وايام الامويين في الشام ، واول ملك هؤلاء في الاندلس ، واول خلافة العباسيين . وما عدا ذلك حتى يومنا هذا ، فقد اكتفوا بما هم عليه فاختلت الموازنة ، فصاروا الى حالتهم الحاضرة .

---

(١) الدولة والجماعة

الفصل الرابع

الثورة الفكرية

والجنسية العربية

١

نستنتج من كل ما تقدم في هذه الرسالة :

١ً – ان الغايات الكمالية ، الخيالية ، هي المسيرة للامم كما للافراد ،

٢ً – ان الثورات الفكرية تربط الامة بوحدة وثيقة العرى تجعلها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، اذ تكون نتيجتها تأسيس معتقد جديد في نفس هذه الامة ،

٣ً – ينبغي التمسك في هذه الثورات الفكرية بتلابيب التوازن بين عادات الامم ومشاعرها ، وافكارها ونظاماتها القديمة ، وبين ماتريد تناوله من المبادىء الجديدة والآراء الحديثة ، وان تسير في هذه السبيل بملء التؤدة والحيطة .

فالامة العربية نائمة نوماً عميقاً منذ ستة قرون ، فهي لذلك متخدرة الاعصاب ، وان اخذت تفتح عينيها . لكنها تفتحهما

تتمعذ بها بعد قليل .

من الضروري لها اذن ثورة فكرية بطيئة حزرة ، تخلع بواسطتها نير افكارها العتيقة البالية ، وتصلح خلقها الفاسد، وتقوم اعوجاج شرائعها ، ثورة تكون لها وجدانا قوميا متين الدعائم

النظام التي تقوم عليه حياتها المنزلية، والمدرسية، والمدنية، والسياسية ، فاسد : تربيتها ناقصة ، وتعليمها مشوش ، ونظاماتها ممسوخة . وفي ادمغة ابنائها مبادئ سقيمة آسنة ، ينتهي تاريخها بعهد مضى من امد بعيد ، فقد ذهب اوانها ، وحان وقت تغييرها .

فكما انه لا يحسن نقل الامة دفعة واحدة من الظلمة الحالكة الى نور الشمس الذي يبهر الابصار بل يعميها، كذلك لا يوافق تركها في حندس ذلك الليل الاليل تتخبط على غير هدى

ان الجماعات مولعة بالقديم كل الولع ، كارهة للجديد اشد الكره ، فهي ما برحت متشبثة بالاول تشبث المشرف على الغرق بحبل النجاة ، وهذا ربما كان سبب جره الى قعر البحر . وجمودها النظري ليس كرهاً للجديد من حيث انه جديد ، بل لأن اقبالها على امور لا عهد لها بها يدفعها الى التفكر العميق ، وهذا ما لا تطيقه

هذه الثورة التي ينبغي بثها في الامة العربية يجب ان تتناول كما تقدم كل ما يتعلق بحياتنا الأسرية، والعلمية، والاجتماعية، وان ترمي الى وضع غاية كمالية يغار كل فرد من افرادها عليها كل الغيرة، ويتعصب لها جدّ التعصب. وهذه الغاية الكمالية هي كما قدمنا اعادة مجد العرب، وتجديد حضارة العرب، وخلق كيان حقيقي للعرب!

ان المعتقدات الدينية، او الاجتماعية، او السياسية، لاتحرز قوة الا بعد ان يجدها الجميع ملخصة في غاية كمالية او مقصد اعلى. وليس تكوين هذه الغاية كما اسلفنا، عمل سنة او سنتين، وانما هو نتيجة حركة مستمرة واجهاد دائم، سيما ونحن لا نرضى بالاتكال على الظروف الحسنة السعيدة، وخصوصاً لانه تكوين معتقد جديد.

جاء محمد (صلعم) من قبل، فشيد للعرب ديانةً كانت سبب فوزهم — دون نظر الى صحة تعاليمها او خطئها، موافقتها للزمن الحاضر او عدمه، لأن قوتها وسلطانها على النفوس ليسا في ذلك — فحملوا على العالم القديم حملةً شدّاء، تمكنوا بعدها من اخضاع الفرس والرومان وغيرهم، وتأسيس

حضارة من اكبر الحضارات ، واملئها لصفحات التاريخ . ولم يتسرب اليهم السقوط في الدرجة الأولى ، الآ لما اخذ الوهن يتسرب الى غايتهم الكمالية .

وكأني بهم الآن وهم افراد مشتتون ، لكل وجهة هو موليها ، وكعبة يحج اليهـا ، لا يفهمون من ديانتهم الا جزأ يسيراً كالصلاة والصوم ، ولا يدركون ذلك المقصد السياسي العالي الذي قام لأجله النبي الكريم ، والسر المظيم الذي بواسطته وحدهم بعد ان كانوا قبائل يغير بعضهم على بعض اقل عاصفة تذهب بريحهم ، كأن لم يسبق لهم وجود .

ليس السبب في نجاح الأمم قوتهـا المادية من اساطيل ومدمرات ومدافع وقنابل ، وانما المهم هو ذلك المؤثر الادبي : الغاية الكمالية .

ولذا قلنا بأن الثورة الفكرية في الامة العربية ، يجب ان ترمي الى تكوين غايةٍ كماليةٍ ، او ديانةٍ جديدة لهـا ، هي الجنسية العربية

———

٢

الجنسية العربية

تحوي بعض الممالك امماً شتى ، وعناصر مختلفة في اللغة والتقاليد والعادات والطبائع والعقائد . فكيف حصل ذلك ؟

قال العلامة ماكس نوردو مجيباً على هذا السؤال :

دخل شعب غازياً بلاد شعب آخر فلم يطرده منها بتاتاً ، بل بقيت مئات من الشعب المغلوب بين الشعب الغالب ، وان الشعب الغالب كان اقل عدداً من المغلوب فلم يبق منه الا فئة قليلة . هنالك يشتد التنازع بعد ان كان ساكناً فيضطر الشعب الغالب لأن يستجمع آخر قواه ليدفع عنه الشعب المقهور او ان يعدمه ادبياً بحرمانه من لغته بالقوة الوحشية ، اللهم الا اذا نهض الشعب المغزو فجأة مدافعاً عن نفسه فيطرد الغازين خارج بلاده او يضطرهم الى نبذ جنسيتهم [1]

ثم قال بعد ان اتى على تعليلات اخرى لا يهم ذكرها :

---

(١) مقالة الجنسية — نشرت ترجمتها في مجلة المقتبس في العدد الثاني من السنة السابعة

ان مسألة الجنسيات في الفصل الخامس الاخير لقصص تاريخية محزنة بدأ بعضها من هجرة الشعوب ، واكثرها بعد ذلك بكثير . وقد طالت فترة ما بين الفصلين لكنها لن تدوم فالستار ارتفع ، والكارثة على وشك الوقوع. انها ستكون شديدة قاسية، وكذا تكون مقادير كل كائن حي ، اذ الحياة جهاد لا رحمة فيه . وليست هذه مسألة حقوق بل مسألة قوة في اعلى واعظم معانيها. وما من حد يضطر الكائن الحي للتنازل عن الاسباب الضرورية لحياته ، ولا يمكن ذلك الا بالقوة ، والقوة تسبب الدفاع والممانعة . وهل يطلب من الاسد ان يبرز صكاً يخوله الحق في افتراس الحمل؟ الاسد يتصيد الحمل اضطراراً ، وهذا مبدو حقه في افتراسه . لاجرم ان للحمل الحق بقتل الاسد ان قدر عليه ! ... وحينما تكون الحياة اوما يماثلها معرضة للخطر يتساوى الحق بالقوة . وهذا ظاهر حتى ان الشرائع البشرية جميعها تبيح للفرد الدفاع عن نفسه ، اي انها تسمح له في بعض الاحوال ان يستعمل القوة في الدفاع عن حقه . او — ليست الحرب حالة من حالات الدفاع عن النفس بين الشعوب لا بين الافراد ؟ —

اذ رأى الشعب في بعض الامور وما هو ضروري له مد يده لامتلاكه .

وحقه في هذا الشيء هو عين الحق الذي للاسد في افتراس الحمل. فاذا شاء شعب آخر منعه فيجب عليه اذن ان يعارضه بالقوة بنفس الحق الذي له ايضاً، ولا وجه للمغلوب بالتشكي مادام له الحق باعادة الكرة مرة اخرى. فان قهر نهائياً واضاع الامل بالقوة في المستقبل، وجب عليه ان يزعن للقضاء قائلاً :

خلقت حملاً فيجب ان اعيش عيشة الحمل. حبذا لو كنت الآن اسداً! ولكن من الحمق مشاكسة الفطرة لانها لم تخلقني اسداً!!

وقال في مكان آخر :

لابد لاوروبا ان ترى مرجل الجنسيات ينفجر انفجاراً هائلاً عندما يأتي دور تصفيه الحساب، والفرق المتبعثرة في كل شعب، اما ان ترجع الى اصلها فتلتف حوله، واما ان تستصرخه وتستنجده، فتنتصر بمعونته على الشعوب التي تستبد بها. ومصير الشعوب الصغيرة التي اكتسحت بلاداً بالاشتراك مع غيرها الى الزوال ان لم يكن لها من قومها عضد قوي يساعدها على الثبات امام جيرانها الاقوياء. هنالك لا تثبت الا الامم الكبرى ومن الامم الصغرى من تستطيع تأسيس دولة مستقلة بعد طرد او محو

سائر العناصر الاجنبية التي تعيش بينها .

وقد لا يمضي القرن العشرون قبل ان يشاهد ختام هذا المشهد التاريخي . بل سترى اوروبا منذ الآن الى ذلك اليوم العصيب شروراً كثيرة ، ودماء مهدورة ومظالم عديدة، وقساوة بربرية، فستمحي شعوب ويسحق اقوام بدون رحمة ولا شفقة ، وتبدو امام هذا التدفق البشري مظاهر شجاعة عالية ! هنا شراذم انذال يخضعون ادبياً بدون مقاومة ، وهناك ابطال يشربون كأس الردى ممزوجة بالعز والشرف . وبعد كل ذلك تتمتع الامم الباقية بحقوقها الوطنية لايرون فيها غير انفسهم .

انها لنظرات مرعبة تتراءى لنا . لكنها قلما تخيف من استعد لتحمل قسوة ناموس الحياة العام : الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها . " اهـ

نعم انها لنظرات مرعبة . ولكنها قلما تخيف من استعد لتحمل ناموس الحياة العام : الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها

فليستعد العرب اذن لتحمل قسوة ناموس الحياة : الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها !

ان المستقبل للشعوب القوية المتمسكة بقوميتها : فلتكن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة !

ان الجنسيات آلهة العصور الآتية ، فلمَ لا نسعى منذ الآن لخلق آله للامة هو الجنسية العربية ، آله يضحي كلٌ من عباده حياته في سبيل نصرته ، لمّا تتطاحن الجنسيات ؟

ان جامعة الجنس وحدها الثابتة ، اذ يمكن ان يرد الانسان ما سواها ، بينا هو غير واجدٍ سبيلاً الى نكران دمه الذي يجول في عروقه ، والتاريخ الذي خطّه اجداده على جبهة الدهر ، واللغة والحضارة اللتين وضع كل منهم حجرًا من احجارها .

وما العاطفة التي يتحسس العربي بها نحو غيره من الاقوام الغريبة الاّ اقلها دوامًا

الا لا عاطفة اسمى من الجنسية ، ولا رابطة اوثق من رابطتها !

قال العالم الاسرائيلي :

ان الذين لا تعمي بصيرتهم الاغراض الشخصية ، يعترفون بأن تنبه الشعور الجنسي حادثة طبيعية تظهر ضرورةً عند حد

محدود من النشوء البشري لا يمكن اعاقتها او منعها الآ اذا امكن اعاقة مد البحر وجزره ، او منع حرارة الشمس من ان تصل الينا ابان الصيف . فالذين يقولون بان الامم تتبذ جنسياتها فلا تعود تذكرها ، ليسوا اكبر عقلاً من ذلك الغلام الذي قال لامه وهي تضمه : متى اصبحتِ طفلاً صغيراً مثلي فانا ايضاً احملك » .

والذي يحدد الجنسية هو في الحقيقة اللغة ، فبها وحدها يصبح الانسان عضواً في جسم الامة ، وهي وحدها تخوله الجنسية فلنتمثل حق التمثيل مكانة اللغة للفرد وحظها في تكوينه وجوده وفكره وشعوره ومظهره الانساني .

باللغة يتكيف نظر الانسان حسب نظر الشعب الذي هذبه ورقاه واودع فيه وفي تركيبه ادق حركاته الفكرية وارق خصائص علمه وتصوراته . باللغة يصبح الانسان ابن الشعب ووارث مفكريه وشعرائه ومؤدبيه وقادته . باللغة يخفض المرء جناحه لادبيات الشعب وتاريخه بفضل ما يؤثران في جميع افراد ذلك الشعب فيجعلانهم سواء في الشعور والعمل .

حقاً ان اللغة لهي الانسان نفسه ! »

الفصل الخامس

واجب مفكري العرب

لا انكر ان هذا المشروع جليل صعب المنال، ولكن همم الرجال لا تقصر دونه، اذا كانت عالية . فعلى المفكرين ان يسيروا لاصلاح الامة في المنهج الذي قدمناه بملء الحذر والتأني. وينبغي ان يكون الجديد الذي يأتونها به قريباً من القديم قرابةً ضيقة او ان يظهر كتتمة له ملازمة . فان شكل الثوب الذي يصير زياً متبعاً يكون كذلك اذا لم يمسّ النقط الاساسية لزي الثوب القديم . — يقولون ان الجماعات بلهاء قاصرة الادراك. كلا لعمري، انها ليست كذلك في ذاتها، ولكن بالنسبة للافراد المبرزين فقط، او الذين هم اذكى من جميع بني عصرهم. وهي تمثل درجة الارتقاء العقلي الذي كان آخر ما توصل اليه عظماء الجيل الماضي وما قبله. ان العظماء اليوم هم في الحقيقة اكثر منها تقدما، واوسع فكراً غير ان الجماعة ستكون غداً في نفس درجتهم العالية . — واذا وقف سواد الامة الجاهل في وجههم، وعارضهم اعنف المعارضة ،

وجب عليهم ان يثبتوا ويصبروا ، ولا بأس في ان لم يروا اباعينهم
ثمرة سعيهم وكدهم الشديدين . فليجوعوا ليأكل ابناء وهم
من بعد ، فانما وجد الآباء ليموتوا في سبيل الابناء !
ولتجدن يقيناً ، وايم الحق من يقدركم حق قدركم ، وينظر
الى مآثركم نظرة الامتنان والتجلة
الامة الآن طفل صغير لا يعرف ماهية الحياة ولا يدرك
ظلمة مستقبله ، عليكم ان تربوه وترشدوه لما فيه الخير واليمن ولو
كان هذا الطفل شرساً ذا انياب حادة ، وشريراً في بعض
الاحايين ، يسيء الى مصلحيه . تعهدوه ولو كان يكرهكم وآرائكم
فعلى الأستاذ في مدرسته ، والكاتب والشاعر والخطيب
من ابناء العرب ، الأول اذا وقف بين تلامذته يلقي عليهم
درسه ، والثاني اذا استدر قلمه لتسويد صحيفة في احد المواضيع ،
والثالث اذا استوحى آلهته (موز) ، والرابع اذا اعتلى المنبر
في محفل ما ، ان يرمي فيما يلقيه ويكتبه ، وينظمه ويخطب فيه ،
الى تلك الغاية العليا ، والمقصد الأسمى : جعل العربية ديانة للعرب !
فأن امثال هذا العنصر الادبي كانت ولم تزل اكبر العوامل
في نهضة الشعوب . نعم انها لا تخلق السفن ولا المدافع ، ولكنها

كما قال الاميرال (توغو) روح هذه السفن والمدافع . والمعتقدات الشديدة مخربة احياناً ، خالقة على الغالب ، غير انها لا تقاوم ابداً . فهى اقوى قوى التاريخ ، والدعائم الحقيقية للحضارات. ولا يمكن ان تعمر الشعوب طويلاً بعد موت آلهتها

ان الكتب والصحف تؤثر في تولد الآراء وانتشارها تأثيراً كبيراً ، ولو كان في الحقيقة اقل من تأثير الخطب. والكتب تؤثر اقل من الجرائد . غير ان بعضها كان السبب في موت آلاف البشر ، وتأسيس اعظم الممالك ، كمؤلفات (روسو) : الأنجيل الحقيقي لزعماء الثورة الفرنسية ، وكتاب : La case-de l'oncle Tom-الذي ساعد اكبر المساعدة حرب الانفصال الدموية في امركا . اما الآن فان تأثير الصحف اعظم جداً من تأثير الكتب. وليس من حكومة تجهل هذا الامر . ولذا يعمد كل من الساسة الى امتلاك صحيفة رائجة يبشر فيها بافكاره ، وتضرب على وتيرته [١]

من ذلك تأثير حوادث التاريخ الكبرى . فانها توقظ الروح القومية ، فتجعلها تتلهف على تلك الايام السالفة ، ايام

(١) غوستاف لو بون - Opinions Et Croyances

الرفاه والمنعة والسلطان ، وتحفزها الى تجديد ذلك العهد ، وترديد تلك الذكرى

ومن هذا النوع تأثير الروايات التمثيلة التاريخية في تشكل هذه الروح السامية : بين دفات التاريخ وقائع الماضي ، وسير رجاله ، واعمال ابطاله ، واضحةٌ جلية ، يقرأوها القاريْ فيشعر في ذاته نفساً تتقد غيرةً وحمية . وعلى المسارح العمومية اشخاص ذلك الماضي يروحون ويغدون ، ويقولون ويعملون ، يتأمل فيهم الفتى ويصغي اليهم ، فترتسم في مخيلته صورهم الجليلة ، وكلماتهم الحكمية الصادقة ، فتهيب به الى الاخذ باسباب النهضة ، وطرح الخنوع جانباً قصياً . ان التاريخ تمثيلُ صامت ولكن التمثل هو التاريخ الحي باعلى مظاهره . والحكومات اذا ارادت ان تنسيَ قوماً شخصيته ، وتجعله لا يفكر في الرفعة ولا يأبه للمجد ، والذكر الحسن ، والعمل الصالح ، انسته تاريخ اجداده ، فتمَّ لها ما ارادت من استعباده وتسخيره ، كما تُسخر الحيوانات العجم في حمل الاثقال ورمي الاقزار .

كذلك من مقومات هذه الروح اقامة الحفلات والاعياد للمشاهير ، اجلالاً للبطولة ، واحتفاءً بالعظمة ، ونظم الاناشيد

الوطنية التي ما سمعها ذو شعور حساس الاّ اقامته الحماسة واقعدته ، واسكرته خمرتها المنشطة

الفكر القومي درجة من درجات الرقي البشري لامهرب منه عند حدٍ محدود . والشعوب التي بلغت شأواً عاليًا من العلم والمدنية تقدس قوميتها وتتعصب لها اشد التعصب

ننظر في ذلك الى اقرب الأقوام الينا وهم الأتراك . شبت في هذه الآونة نار حرب قلمية بين كاتبين من كبار الكتاب هما سليمان نظيف واحمد اغايف . نشر الأول مقالاته في (اجتهاد) والثاني في (تورك يوردي) . وهاتان المجلتان تدافعان عن مبدئين ، بل تنشدان ضالتين متغايرتين . كتب اغايف في رسائل عديدة وهو يردّ انتقادات خصمه ، القضية التي يدافع عنها ، ليؤيدها . قال ما خلاصته :

يتألف تاريخ الشعب من حوادث ماضية منذ اصله ومنبعه حتى هذا اليوم . فليس الحاضر الاّ تتمة الماضي . ولا يمكنك بالبداهة اهمال طور من اطوار التاريخ ، الاّ ويرسخ في دماغك فكر عنه مغلوط ، او تسعى نحو مقصدٍ غير قابل التحقيق . لتعمل عملاً مثمراً ، ينبغي ان تعرف نفسك . ولا يقدر شعب

على ان يكون وجدانه الا اذا عرف تاريخه وخصائص جنسه، اي مميزاته القومية. فالتاريخ العثماني لا يبتدئ حين رسخ قدم قبيلة (قايي خان) في آسيا الصغرى. والسلطان عثمان لم يصنع شيئاً سوى انه نظّم مملكة السلجوقيين، وخلّد دوام عائلة هي في الأصل تركية، حكمت ولايات الاناضول الغربية ما ينيف عن قرنين. من اين اتى هؤلاء؟

— من تركستان. كل الذين يصعد اصلهم الجنسي الى المنبع الطوراني يشكلون اذن الشعب التركي، واحداً لا يتجزأ، بالرغم عن اشكاله الحالية المختلفة. وجنكيز خان وتمرلنك يجب اعتبارهما ملكين تركيين عظيمين بالرغم عن الفظائع التي ارتكباها ورميا بها اخوانهما في الجنسية والدين، وبصفتهما كذلك ينبغي ان نحفظ لهما مكاناً او بعض مكان في روح الأمة التركية

اما منليان نظيف فانه لا يريد هذه النظرية بل يحاربها بشدة عنيفة. يقول: ان الحياة التي قضاها اسلافنا في تركستان ليست في نظرنا سوى حلم مظلم بعيد. ولم نؤخر شيئاً من تلك الحياة الوحشية التي هربنا منها لنرسخ قدمنا في هذه البلاد. هنا تكوننا

بمقتضى الوسائل المحلية . تمثلنا بالاجانب ، وعقدنا مدة عصور جمة تزاوجات مركبة Mariages Mixtes في كل انحاء المملكة واعتنق الاسلام كثير من المسيحيين خصوصا في دور الفتح . وتأثير الاقليم والبيئة ، او الضرورات التي ولدها هذا التأثير غيرت تماماً سيماء التركي وروحه ، اذ اصبح عثمانياً بتأثير شروط حياته الجديدة . فالعثماني غير مديون لبلاده الاصلية ، لأنه لم يصطحب شيئاً منها . والنفر من الاتراك الذي اقام في ولاية (بروسه) منذ ستماية عام بأمرة ارطغرل كان عارياً عن سائر العناصر الضرورية للحياة الحضرية . ولا يشبه مجموعهم الا بالحويصلة الجنينية ، تنمو وتتوسع وتصير لها شخصية ووجود اجتماعي اذا كانت الشروط المحيطة بها صالحة موافقة . حصل هذا الحادث هنا ، وما كان ليتحقق لو بقيت قبيلة ارطغرل في تركستان ولم تقطن آسيا الصغرى . طوران بلاد قاحلة لاتنبت فيها الحضارة ، فلماذا يشخص قلب التركي وعقله اليها ؟ ولمَ تكون غايته الكمالية تمجيد تيمورلنك ، هادم المملكة العثمانية الاولى ، وهل يمكن للراحل الى طوران ان يفيض علينا بما يزيد علمنا وفننا ، ولغتنا و آدابنا ؟

ويقاوم سليمان نظيف في كتاباته فكرة التحريف الذي تود الناشئة التركية ادخاله في اللغة ،اي تحاشي استعمال الكلمات العربية والفارسية ، واستبدالها بكلمات مجهولة مأخوذة عن الاصول التركية والتترية .

من منهما المحق المصيب ؟ – يصعب الحكم في ذلك . «(١)

ولكن المهم ليس هنالك .

يرى القارئ من ثنايا هذا البحث الجليل وبنوع خاص القسم الاول منه، ان النابتة التركية قد احلت القومية في الواقع مركزاً سامياً مقدساً ، فوق كل شيء ، وان قادة الافكار في الامة فرغت من هذا الموضوع فاخذت تفكر فيما يحدد هذه القومية ، ومتى يبدأ تاريخها ، وكيف تتعزز اللغة، اسمى مظاهر القوميات

ونحن ماذا ترانا صانعين ؟ ؟

* * * * *

الخلاصة ان اعظم عمل يقوم به المفكرون في الامة العربية، او بالاحرى اول واجب عليهم ، هو ان يحدثوا فيها ثورة فكرية

(١) Jeune Turc-No 29 chewal 1331

تدريجية تنتهي بتشكل ديانة جديدة ، لا قيام لأبناء الضادالا بها ، هي الجنسية العربية ، ليصيروا مستعدين لتحمل قسوة ناموس الحياة العام :

الحياة جهاد وقوة الحيـــاة تكسب الحق فيها .



الفصل الثالث

الثورات والثورة الفكرية

صفحة

الفصل الرابع

الثورة الفكرية والجنسية العربية

الفصل الخامس

خطأ مطبعي

نرجو القراء ان يصححوه قبل مطالعة الرسالة

خطأ	صواب	صفحة
لاصقه	لاصقة	١٦
بقَى	بقِيَ	٢١
بنَى	بنِيَ	٣٠
بدواتها	بداوتها	٤٤
الارهان	الأرهاق	٤٦
Psycologie	Psychologie	٤٧
يقتضي بأن	يقضي بأن	٥٠
روحًا قوية	روحًا قومية	٥١
وان الشعب	او ان الشعب	٦١
مامن حد	ما من احد	٦٢
فستمي	فستمحى	٦٤